

دور آلة العود فى تطوّر الموسيقا الأوروبية

د. زين نصّار*

بالرغم من أن آلة العود قد عُرفت فى الممالك القديمة، واستخدمها قدماء المصريين فى الدولة الحديثة عام ١٦٠٠ ق. م.، وقد عُثر فى مدافن طيبة على آلة منها، وهى محفوظة بالمتحف المصرى فى برلين. بالرغم من ذلك فإننا نجد بعض الكتّاب الغربيين يحاولون إشاعة نوع من الضبابية والغموض حول أصل تلك الآلة.

ولكننا فى الوقت نفسه نجد كثيراً من الكتاب المنصفين الذين يحددون وفى وضوح أن آله العود قد وصلت إلى أوروبا عن طريق العرب. فنجد كاتبا مثل بول هنرى لانج(١) يقول : «أما الآلات الوترية التى تُغمز أوتارها، فقد حظى العود وأنواعه المتعددة بكل تقدير، وشاع عزف هذه الأنواع فى عصر النهضة وعصر الباروك، وأصل الآلة مشوب بالغموض» . يقول جيروم واليزابيث روش(٢)

(*) أستاذ ورئيس قسم النقد الموسيقى بالمعهد العالى للنقد الفنى أكاديمية الفنون - بالقاهرة .

(١) بول هنرى لانج: الموسيقا فى الحضارة الغربية، من عصر اليونانيين حتى عصر الرينيسانس (عصر النهضة). ترجمة د. أحمد حمدى محمود القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص (٣١٣).

(٢) Jerome ' Elizabeth Roce : A Dictionary of Early Music , London, Faber', Faber limited 1981. (116) .

«إن العود قد أتى إلى أوروبا من الشرق فى أوائل العصور الوسطى». دون أن يحدد بدقة من أى بلاد الشرق جاء. وفى الوقت نفسه نجد كُتَّاباً منصفين يوضحون الحقيقة بجلاء. فيقول أنتونى باينز(١) «قدمت آلة العود إلى أوروبا من الحضارة العربية قرب نهاية القرن الثالث عشر» . ويقول جيروفرى هيندلى(٢) وقد دخلت آلة العود إلى أوربا من البلاد الإسلامية فى أواخر القرن الثالث عشر». ولذلك فإننى أرى أن من واجب المتخصصين العرب فى الموسيقا أن يكتبوا الدراسات التى توضح أثر الحضارة العربية الموسيقية على الحضارة الأوروبية، وهو بالتأكيد تأثير كبير، تثبته المخطوطات والكتب العربية التى عرفها الأوروبيون ، وكونت فكرهم الموسيقي خلال فترة بناء حضارتهم الموسيقية التى تبلورت بعد ذلك بعدة قرون. ومن هذا المنطلق أقدم هذه الدراسة.

إن آلة العود كانت الآلة الرئيسية فى موسيقا الحضارة العربية، وقد أحتل عازفوها مكاة رفيعة لدى حكامها ، ونذكر منهم على سبيل المثال: إبراهيم الموصلى، وابنه إسحق الموصلى وتلميذهما زرياب، الذين عاشوا فى عصر الدولة العباسية . وقد انتقلت آلة العود إلى أوروبا من خلال ثلاثة مصادر هى :

١ ـ الفتح العربى لإسبانيا (٩٢ هـ ـ ٧١١م).

٢ ـ فتح العرب لجزيزة صقلية (٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م).

٣ ـ الحروب الصليبية التى شنتها البلاد الأوروبية على العرب فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين.

وانتقلت آلة العود إلى أوروبا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى. وكما هو معروف فإن الآلات الموسيقية تنتقل بموسيقاها . وقد ظلت آلة العود بصورتها العربية لفترة من الوقت، ثم أُدخل عليها كثير من التعديلات لتُناسب طبيعة الموسيقا الأوروبية المتعددة التصويب. وقد قامت على آلة العود العربية النهضة الغنائية فى أوروبا، كما أنها تُعد أول آلة موسيقية تُكتب لها متفردة مقطوعات خاصة بها، لتؤديها دون ارتباط بالغناء فى العصور الوسطى ، حيث كانت آلة العود تحتل نفس المكانة التى تحتلها آلة البيانو الآن. واسم آلة العود فى اللغات الأوروبية المختلفة يؤكد أصلها العربى . ويلاحظ أنه فى

---

(1) Baines', Anthony: Musial Instruments through the Ages, England Penguin Books, 1971, p. (157).

(2) Hindley Geaffrey: Musical Instruments Melbourne, Lamlyn, sunbooks, 1971,p. (52)

معظم الأحوال هو كلمة عود ذاتها وقد أدُغمت بها أداة التعريف مع حذف حرف العين لصعوبة النطق به عند غير العرب، فاسم الآلة بالإنجليزية (Lute) وبالفرنسية (Luth) وبالإيطالية (Leuta) وبالأسبانية (Loud) وبالرتغالية (Alaude) والألمانية (Laute)(١) وكذلك فقد كانت آلة العود هى أول آلة موسيقية يُدوَّن لها تدوينا موسيقيا . ومع ذلك فإن استخدام الحروف الأبجدية والأرقام للتدوين الموسيقى فكرة قديمة نجدها فى المخطوطات العربية ، وعلى الأخص فى مخطوطات صفى الدين عبد المؤمن الأموى، المتوفى عام (٦٩٣ هـ ـ ١٢٩٤ م).

ويرجع الفضل لآلة العود فى نقل الموسيقا الأوروبية من الكنيسة إلى الحياة الدنيوية . وقد ظهرت أحجام مختلفة من آلة العود لتغطى كل المساحة الصوتية المعروفة . وقد بدأ فن الأوبرا باغان تقدم بمصاحبة آلة العود. ومما هو جدير بالذكر أن الأوركسترا الذي قَدَّم أوبرا أورفيو (orfeo) عام ١٩٠٧م ، للمؤلف الإيطالى كلوريو مونتيڤيردي (١٥٦٧ ـ ١٦٤٣)، كان يعتمد بشكل أساسى على عدد كبير من آلات العود. كما أن حفلات تشارلز الأول، الذى حكم بريطانيا العظمى ابتداء من عام (١٦٢٥) كان يستخدم فيها أربعون آلة عود، بجانب الآلات الأخرى(٢)

وقد استغلت آلة العود فى مصاحبة الغناء والرقص بالتآلفات التى تعزفها. وكان هذا بداية ظهور لون جديد من الموسيقا، تطور على أساسه فن الأوسبرا، وفن الغناء بصفة عامة . وبرز أسلوب الكتابة للآلات الموسيقية المختلفة فى المؤلفات الآلية البحتة. وتحولت آلة العود من مجرد آلة مصاحبة إلى آلة منفردة كتب لها كثير من أساطين المؤلفين الموسيقيين، نذكر منهم :

أنطونيو ڤيڤالدى

Antonio Vivaldi (١٦٧٨ ـ ١٧٤١).

ويوهان سباستيان باخ Johann Sebastian Bach (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠)،

وجورج فريدريك هيندل

Gearge Frideric Handel

(١٦٨٥ - ١٧٥٩)،

وفرانز جوريف هايدن Franz Joseph Haydn (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩).

تاريخ آلة العود وكيفية تأثيرها فى الموسيقا الأوروبية

انتقلت آلة العود فى العصور الوسطى من الممالك القديمة إلى العرب، فاحتضنتها المدنيات العربية فى عصورها الزاهرة

(١) أحمد المصرى : تطور الموسيقا الأوركسترالية، القاهرة، المجلة الموسيقية، يصدرها أصدقاء الحفنى، العدد (١٢) ديسمبر (١٩٧٤)، صفحة (١٤).

(1) Schols, Percy, A : The Oxford Companion To Music, London Oxord University Press, 1970 p. (584) .

وتقدمت فى صناعتها، وظل العود عند العرب ذا أربعة أوتار، تُسَوَّى (أى تضبط) فيما بينها على بُعد الذى بالأربع (أى مسافة الرابعة التامة)، حتى زاد أبو الحسن على بن نافع، الذى اشتهر باسم (زرياب)الوتر الخامس فى أوائل القرن التاسع الميلادى ببلاد الأندلس، كما أنه استخدم ريشه النسر فى عزف أوتار آلة العود بدلا من قطعة الخشب التى كانت تستخدم من قبل.

وقد اشتهرت هذه الآلة عند العرب باسم العود. وكثيرا ما أطلق عليها علماؤهم اسم (البربط) وهو لفظ فارسى مُعرَّب، ومكوّن من مقطعين معناهما (صدر البط) نسبة إلى شكل آلة العود(١). وقد كان لآلة العود مكانتها فى الحضارة العربية. وفى عصر الدولة العباسية اشتهر من موسيقيها ـ كما قلنا ـ إبراهيم الموصلى وابنه إسحق وتلميذهما زرياب، ومنصور زلزل كما كان إبراهيم بن المهدى شقيق الخليفة موسيقيا بارعا، بل إنه كان متزعما لحركة التجديد فى الموسيقا فى أيامه. وقد كان لزرياب موقف شهير أمام الخليفة هارون الرشيد، عندما طلب منه أن يعزف على عود أستاذ إسحق الموصلى، فأبى إلا أن يعزف على عوده، وراح يصف ذلك العود للخليفة بقوله: «عودى وإن كان فى قدر حجم عوده ومن جنس خشبه، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه، وأوتارى من حرير لم يُغسل بماء ساخن يكسبها أنوثة ورخاوة،، وبهن مثلثها أتخذهما من مصران شبل، فلها من الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها(٢) وبعد تلك الواقعة خَيَّر إسحق الموصلى تلميذه زرياب بين البقاء فى بغداد مع مواجهة عداوته، أو الرحيل على أن يزوده بما يحتاج إليه للسفر. ورحل زرياب إلى الأندلس، فأقام هناك حضارة موسيقية، فاقت كل خيال. وأقام هناك مدرسة لتعليم الموسيقا والغناء، كان يتعلم فيها أبناء المنطقة ، وأبناء الملوك والأمراء والنبلاء من أوروبا . وكان لهؤلاء الأبناء الذين تعلموا فى مدرسة زرياب ، وكذلك جواريه اللاتى ذهبن إلى البلاد الأوروبية أكبر الأثر فى نقل الحضارة الموسيقية الزاهرة من الأندلس إلى أوروبا، التى كانت تعيش آنذاك فى ظلمات الجهل.

وفى الأندلس أضاف زرياب وتراً خامساً

(١) د . محمود أحمد الحفنى : علم الآلات الموسيقية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ ، ص (٧٣) .

(٢) محمود أحمد الحفنى : رزياب ، أبو الحسن على بن نافع موسيقار الأندلس القاهرة، سلسلة أعلام العرب، رقم (٥٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، بدون تاريخ ، ص (٤٦).

لآلة العود وصبغه باللون الأحمر، وجعله وسطا بين أوتار العود الأربعة. وقد كتب علماء العرب البارزون دراسات مهمة في الموسيقا، وكان للعود – وهو الآلة الأساسية في الموسيقا العربية – نصيب الأسد في دراساتهم الموسيقية. فنجد فيلسوف العرب أبا يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح الكندي، المشهور باسم الكندي (١٨٥ هـ / ٨٠١ م ٢٥٢ هـ /. ٨٦٦م) يقول في الرسالة الكبرى في التأليف، عن صناعة العود ما يلي(١):

ينبغي أن يكون جسمه – أي العود – في غاية ما يمكن أن يكون من الدقة، ويكون ذلك عاماً فيه بجميع أجزائه، حتى لا يكون في ظهره موضع أدقّ ولا أثخن من موضع، وكذلك في بطنه، فإن اختلاف أجزائه في الرقة والثخن، مما يختله عن إستواء الأوتار، وائتلاف النغم» . وفي الموضع نفسه تحدث الكندي عن تسوية أوتار العود في النحو التالي (٢):

التسوية العظمى

مع وجود تسويات أخرى لأوتار آلة العود هي :

شكل رقم (١)

وقد كان العود في زمن الكندي له أربعة أوتار. أما الباحثون النظريون فكانوا يفترضون وتراً خامساً يسمونه «الزير الثاني» أو «الزير الأسفل أو الحاد»(فا[1]). وإذا علمنا أن أوتار آلة العود كانت تصنع في القرن الثالث الهجري من أمعاء للوترين الغليظين، ومن الحرير اللوترين الدقيقين، ثم صارت كلها في القرن الرابع الهجري تصنع مع الحرير، بمعدل (٦٤) خيطا للبم، و (٤٨) خيطا للمثلث و (٣٦) خيطا للمثنى، و (٢٧)خيطا للزير ، فتكون نسبة غلظ كل وتر إلى الذي يليه كنسبة (٤ ، ٣) . إذا علمنا هذا وجب أن يُصنع الوتر الخامس من (٢٠) خيطا ، مما يجعله دقيقا لا يتحمل الشد ا لمطلوب ، أو إذا شُدَّ فلا يحافظ على استمرار تسويته وهذا هو السبب فيما أعتقد لعدم انتشار استعمال العود بخمسة أوتار. وقد أُهمل الوتر الخامس في القرن الخامس الهجري، كما أخبرنا بذلك ابن سينا. وفيما يلي التسويات المختلفة التي مرت بها أوتار العود:

كانت أوتار آلة العود الأربعة تسوى في عهد الفارابي المتوفى عام (٣٣٩ هـ / ٩٥٠م)

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح الكندي: مؤلفات الكندي الموسيقية ، حققها وأخرجها زكريا يوسف، بغداد ، مطبعة شفيق ١٩٦٢ ، ص (١٢٣).

(٢) المرجع السابق : ص (١٢٦ و ١٢٧).

على النحو التالى : (١) شكل رقم (٢)

وفى عهد الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ـ ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) كانت أوتار آلة العود تسوى على النحو التالى : (٥ ـ ١٤٨). شكل رقم (٣)

والجدير بالذكر أن الوتر الحاد (مى بيمول) قد أُهمل فى زمن ابن سينا. ويؤكد أبو منصور الحسين بن زيلة، تلميذ ابن سينا، المتوفى عام (٤٤٠ هـ ١٠٤٨م)، أن تسوية أوتار آلة العود التى ذكرها الشيخ الرئيس، كما أكد الاستغناء عن الوتر الخامس(٣). وقد كان صفى الدين عبد المؤمن الأرموى (٦١٣هـ /١٢١٤م ـ ١٢٩٤م) قد توصل إلى طريقة سهلة مستوفية عناصر التدوين الموسيقى فقد مَيَّزَ النغمات المختلفة فى الطبقة الصوتية، بما يقابلها من الحروف الدالّة عليها، وحدد أزمنتها فى اللحن بالأعداد التى تخص كلا منها فى دور الايقاع المفروض، ثم قرن أجزاء الأقاويل فى الألحان الغنائية بما يقابلها فى أجزاء النغم(٤).

وقد سويت أوتار آلة العود فى أيامه على النحو التالى (٥): شكل رقم (٤)

وكما سبق أن أوضحت فإن آلة العود قد انتقلت إلى أوروبا عن طريق فتح العرب للأندلس و جريرة صقلية وخلال الحروب الصليبية . وكان تأثير الحضارة العربية على الأوروبيين قويا خلال الفترة التى التحمت فيها الحضاراتان. وقد انتقلت آلة العود إلى أوربا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى وظلت حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى. كما هى ذات أربعة أوتار، وتُعزف باستخدام ريشة النسر. ومع حلول منتصف القرن أصبحت الأوتار الأربعة مزدوجة تُسَوَّى إما فى النغمة نفسها، أو على بُعد أوكتاف. ومع بداية القرن الخامس عشر فإن تسوية أوتار آلة العود قد تغيرت عن التسوية العربية القائمة على مسافات الرابعة التامة، إلى مسافتى رابعة تفصل بينهما

(١) أبو النصر محمد بن طرخان الفارابى، الموسيقى الكبير ، تحقيق غطاس عبد الملك القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة ، (بدون تاريخ)، ص (٥٠٥).

(٢) أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا : الشفاء، الرياضيات (٣) جوامع علم الموسيقى، تحقيق زكريا يوسف ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٦ ، ص (١٤٨) .

(٣) أبو منصور الحسين بن زيلة : الكافى فى الموسيقا ، تحقيق زكريا يوسف القاهرة، دار القلم ، ١٩٦٤، ص (٧٤) .

(٤) صفى الدين عبد المؤمن بن أبى مفاخر الأرموى البغدادى : الأدوار فى الموسيقا، شرح وتحقيق غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ، ص (٢٧).

(٥) المرجع السابق : ص (٢٣١).

مسافة ثالثة كبيرة، شكل رقم (٥) (١).

والجدير بالذكر أنه لم تكن هناك طبقات صوتية مطلقة لتسوية الأوتار. وإنما كانت الطبقة الصوتية لكل موسيقى نسبية(٢). وقد تم التخلى عن استخدام ريشة النسر فى عزف أوتار آلة العود ، وأصبحت تُعزف بأصابع اليد اليمنى لتناسب مهمتها الجديدة، فى عزف الألحان البوليفونية (المتعددة الأسطر اللحنية) التى كانت تزداد تعقيداً . ومع حلول عام ١٥٠٠ أضيف إلى آلة العود فى أوروبا وتر سادس فى المنطقة الغليظة، ونغمته صول (G) لزيادة المساحة الصوتية للآلة ، شكل رقم (٦)(٣)

وفى القرن السادس عشر كانت أوتار آلة العود فى أوروبا تسوى كما فى شكل رقم(٧)(٤):

وفى عام(١٥١١م) قدم المؤلف والمغنى الألمانى سباستيان فيردونج Sebastian Virdung (١٤٦٥ ـ ١٥١١) أول تصنيف تفصيلى مبكر معروف للآلات الموسيقية فى كتابة (الموسيقا للقارئ الألمانى)، قدم فيه وصفا لآلة العود ذات الستة أوتار، على نحوما كانت تستعمل فى ذلك الوقت(٥) ومع مرور الوقت أدخلت تحسينات على آلة العود فى أوروبا حتى تتناسب مع موسيقاها حتى بلغت الكمال من وجهة نظرهم، وحققت هدفها . فالعود الجيد كان يتميز برنين صوتى قوى، مع خفة وزن خشبه، والأضلاع التى يصنع منها تجويف صندوقه المصوت، وهو نصف كمثرى الشكل، غالبا ما يكون سُمكها أقل من ٣٢/١ البوصة، وخشب التجويف يكون من خشب الصنوبر الرقيق ، والشمشية تكون مزخرفة على

شكل الورود ، ويتراوح سمكها بين ١٢/١ و ١٦/١ من البوصة وتدعمها ست أو أكثر من الدعائم الخشبية الموضوعة بشكل عمودى على المحور، وهى تُغرّى تحت جدار للتجويف

(1) Baines, Anthony : Musical Instruments Through The Ages, England, Pemguin Books, 1971, P . (158).

(2) Sachs, Curt: The History of Musical Instruments, London, J.M.DENT, 1978, p.(344)

(3) Baines , Anthony : Op. Cit., p. (158).

(4) Sachs, Curt: Op, Cit. p. (344).

(5) Jacobs, Arthuer : The new Penguin Dictionary of Music, England, penguin Books, 1984 , p. (199).

مباشرة من الداخل ، ويلعب نوع الخشب المصنوع منه الصندوق المصوِّت دوراً مهما جداً فى جمال الرنين الصادر عن آلة العود. ورقبة العود كانت تُربط حولها دساتين من مُصران القطط(١). وكانت المحافظة على الأماكن الصحيحة الوضع تلك الدساتين من المهارات الضرورية التى كان يجب أن يتمتع بها عازف العود الأوروبى . ولتحقيق التوازن فى الآلة كان يجب أن يكون بيت الملاوى مائلا إلى التخلف بزاوية قائمة . وكانت أشهر أماكن صناعة آلات العود. فى أوروبا هى مدنية بولونا (Bologne) ، حيث كان أغلب الصنَّاع من أصل ألمانى. وفيما بين عامى (١٥١٨ ، ١٥٥٢) ظهرت مؤسسة تمتعت بسمعة طيبة فى صناعة آلات العود وقد آدارها كل من : الاوكس مالر (laux Maler) وسيجيسموند مالر (sigis mond Maler) وهانس فراى (Hans Frei) . وقد حققت تلك العيدان الجيدة الصنع سمعة أسطورية لمدينة بولونا لما يزيد عن مائى عام. ومع حلول عام ١٦٠٠ كان هناك صنَّاع اشتهروا بصناعة آلات العود فى أوروبا . وكذلك اشتهر الصناع الرومان بصناعة أحجام أكبر من آلات العود، هى آلات العود الكبير «الطيوربو Theorbo» . وقد أرجع بعض المستشرقين اشتقاق كلمة (طيوربو) إلى اللفظ العربى (طرب)(٢) ، وآلة العود الباحى الكيتارونى (Chitarrone) التى سيرد ذكرها بعد قليل .

التدوين لآلة العود فى أوروبا :

يرجع التدوين الموسيقى لآلة العود فى أوروبا إلى النصف الثانى من القرن الخامس عشر. وقد استمر حتى القرن الثامن عشر وأخذ شكل التدوين الجدولى (Tablature)، وفيه تُستخدم الحروف الأبجدية والأرقام وبعض العلامات الآخرى . على أن هناك تدوينا جدوليا خاصا بالأورغن وآلات لوحات المفاتيح العود والجيتار، غير أن أهمها هو التدوين الجدولى لآلتى الأورغن العود. ويعتمد نظام التدوين الجدولى لآلة العود على مدرج يتكون من خطوط ومسافات ، ويوفر كل خط من خطوط المدرج لوتر من أوتار العود. وتدل الحروف الأبجدية أو الأرقام على الدساتين التى تحدد النغمات المطلوب عزفها . ولم يكن المقصود إطلاقا فى هذا النظام تحديد الطبقة الصوتية بدقة، لأنه . كما سبق القول ـ لم تكن هناك طبقة صوتية موحدة أو محددة ، بل كانت الطبقة الصوتية لكل صوت موسيقى نسبية حتى ذلك الوقت(١) . وكانت أساليب

(١) بول هنرى لانج : الموسيقا فى الحضارة الغربية ، مرجع سابق ، ص (٣١٣).

(٢) د . محمود أحمد الحفنى : علم الآلات الموسيقية مرجع سابق، ص (٧٨)

التدوين الجدولى المستخدمة فى كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا مختلفة . إلى حدّ ما. وفيما يلى توضيح لأسلوب كل منها على حدة (٢٣ ـ ١٠٠٤):

الطريقة الألمانية:

وقد وضع أسس هذه الطريقة عازف الأورغن الكفيف كونراد باورمان Conrad Pauman (١٤١٠ ـ ١٤٧٣) ، واستخدام فيها الحروف المختلفة غير أنه كانت هناك طريقة ثانية تستخدم عدة خطوط ، يرمز كل منها إلى زوج من الأوتار (من طبقة صوتية واحدة)، وبين هذه الخطوط أو فوقها توضح أماكن العفق بواسطة الحروف الأبجديةأو الأرقام فكان يرمز للوتر الأول المطلق (أى بدون عفق) بالحرف أ (A)، أو بالرقم صفر (0) ، وللدستات الأول بالحرف ب (B) أو الرقم (١) ، وللدستان الثانى بالحرف ج (C) أو الرقم ٢ (2) .... وهكذا.

الأسلوب الإيطالى:

وكان يستخدم أيضا فى أسبانيا ، ويعتمد على مدرج مكون من ستة خطوط. ويلاحظ أن أغلظ الأوتار صوتا يُرمز له بالخط الأعلى من المدرج، وفوق تلك الخطوط كانت تُحدد أماكن العفق باستخدام الأرقام من (صفر) إلى (٩). ولما كانت الدساتين على رقبة آلة لعود مقسمة إلى أنصاف أبعاد (أتوان) فإن الأرقام على المدرج الموسيقى كانت تكفى لتوضيح الأصوات الموسيقية ، ولم تكن هناك حاجة إلى استخدام علامات التحويل للرفع أو للخفض (أى علامات الدييزات أو البيمولات).

الأسلوب الفرنسى:

وهو أوسع هذه الأساليب انتشاراً ، وكان يعتمد أيضا على الخطوط ، حيث يدل كل خط منها على زوج من الأوتار، أما العفق فتوضح باستخدام الحروف الأبجدية. وكان الخط الأعلى يدل على أحدّ الأوتار صوتا. كما كانت تستخدم بعض العلامات التى توضع أعلى المدرج الموسيقى الذى كان يتكون من مجموع الخطوط، وذلك لتوضيح الإيقاع . ولم يكن المقصود من تلك العلامات توضيح طول كل نغمة، لأن تلك العلامات لم تكن بالدقة التى تتطلبها عملية تدوين أطوال النغمات الموسيقية. شكل رقم ٨ أ

التدوين الجدولى بالأسلوب الإيطالى (٢٢ ـ ٥١٠)

التديون الجدولى يالأسلوب الألمانى (٢٢ ـ ٥١٠) شكل رقم ٨ ب

التدوين الجدولى وفقا للأسلوب الفرنسى (٢٢ ـ ٥١٠) ٨ ج

(1) Sachs, Curt: The History of music In struments op. Cit, . p. (344).

وبالرغم من أن العصر الذهبى لازدهار آلة العود فى أوروبا كان فيما بين عامى (١٥٩٠ ، ١٦٣٠)، فإن آلة العود قد استمرت مسيطرة على الحياة الموسيقية فى أوروبا بفضل مصاحبتها للغناء والرقص. والميزة الكبرى لموسيقا آلة العود. فى ذلك الوقت هى شخصيتها البوليفونية، كما أن العود كان أكثر الآلات المنفردة الجادة فى القرن السادس عشر. وكذلك قامت آلة العود بمصاحبة الكثير من الأغانى الأوروبية الرقيقة فى القرنين السادس عشر، والسابع عشر التى كانت قد كُتبت لتصاحبها آلة العود(١) . وقد حظى العود وأنواعه المختلفة فى أوروبا بكل تقدير، شاع عزف هذه الأنواع منذ عصر النهضة واستمر ، حتى نهاية عصر الباروك فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر، عندما حلت آلة البيانو محلها لمناسبتها لطبيعة الموسيقا الأوروبية المتعددة التصويب. وكذلك بعد اكتمال صناعتها وتلافيها للعيوب التى ظهرت فى آلات لوحات المفاتيح الأخرى، بالاضافة إلى سهولة العزف عليها(٢).

وتُستهل قائمة عازفى آلة العود الأوروبيين البارعين بفرانشيسكو سيينا من «فوسومبرونة» وتنتمى مجموعتاه لآلة العود إلى أقدم ما هو محفوظ من هذا النوع من الموسيقا. وقد نشرهما بتروتشى عام ١٥٠٧. ومن بين العدد الكبير من عاز فى آلة العود البارعين نذكر: فرانشيسكو داميلانو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٣) الذى لم يكن مجرد عازف على آلة ، مما جعله جديراً بوصف معاصريه له بالإلهى، ولكنه كان أيضا مؤلفا موسيقيا ذا أصالة كبرى . وقد ألهمت فانتازياته الأجيال اللاحقة فى أنحاء أوروبا . وبينما قنع أسلافه بالركضات والتآلفات الممتعة ، قام هذا الفنان الحساس بنسج كونترا بونطات مهيبة . وتبع فرانشيسكو داميلانو حشد من عظماء العازفين المؤلفين الموسيقيين من أمثال (أنطونيو روتا) من بادوا، والبولونى (مارك أنطونيو ديل بينارو) ، والميلانى (بيرو باولو بورنو)، و (جياكومو جورتزا نيس)، والفلورنسى (فينشينزو جاليلى)، والد عالم الفلك المعروف. وفى حوالى ١٥٩٠ بلغ العود قمة إبداعه ، وظهر عازفان، موسقيان هما : جوڤانى انطونيو تيرتس ، وسيمون مولينارو ،كزعيمين له . وفى مؤلفاتهما المدونة بطريقة الجداول . ونشرت فى العقد الأخير من القرن ـ ظهر أسلوب خالد للآلات، شامخ ومكتمل

(1) Scholes , Percy , A. : The Oxford Companion To Music Op Cit p (384).

(٢) د . محمود أحمد الحفنى : علم الآلات الموسيقية ، مرجع سابق ، ص (١٧).

وقائم بذاته، وقادر على التعبير عن كل الظلال، ببراعة فنية فائقة.(١)

وقد بلغ عازفو آلةالعود مكانة كبيرة ، حتى أن عازف آلة العود فى البلاط الدانمركى كان يتقاضى أجراً مساويا لأجر أمير الأسطول(٢).

وقد كتب مؤلف الموسيقا الألمانى الأشهر يوهان سباستيان باخ (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠)، أربع متتاليات لآلة عود منفردة، وأحد مؤلفات الفوجة ، وعدة مقطوعات أخرى قليلة لآلة العود. كما كتب فرانز جوزيف هايدن (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩) مقطوعة لآلتى عود، وثلاثيتين لآلات العود والفيولينة والتشيللو. وقد طبعت كتب مقطوعات آلة العود المبكرة فى أوروبا ، بإيطاليا، حيث كانت صناعة آلات العود أيضا مزدهرة هناك، وبقيت إيطاليا أكثر الدول الأوروبية إنتاجا لمثل تلك الكتب خلال القرن السادس عشر، حيث تطوَّر النشر الموسيقى لآلية العود بشكل دولى ، على نحو أتاح للآلة شهرة عريضة . يضاف إلى ذلك الرحلات الكثيرة التى كان يقوم بها كبار عازفى آلة العود . وقد وصلت أعمال آلة العود قمة عظمتها فى المدرسة الإنجليزية، وخصوصا فى مؤلفات جون دولان (١٥٦٢ ـ ١٦٢٦)، الذى كان أعظم عازف لآلة العود فى تلك الأيام . وكانت آخر معاقل آلة العود فى المانيا ، حيث مات آخر عازف للعود هناك فى عام ١٧٤٠(٣). صورة رقم (١)

عود أوروبى من أواخر القرن الخامس عشر. صورة رقم (٢)

نموذج لعود أوروبى ضخم

صورة رقم (٣)

عازف عود أوروبى من القرن التاسع

صورة رقم (٤)

أله عود فى لوحة أوروبية (عام ١٥١٠)

صورة رقم (٥)

عود أوروبى من عصر النهضة.

شكل رقم (٩)

إختراع آلات عود أكبر حجما.

فى . عام ١٦٠٠ نشر عازف العود (Antonis Fyancisque) مؤلفه (Le Tre'sor d' Orphe'e) وسجل فيه عدة مقطوعات .

---

(١) بول هنرى لانج : الموسيقا فى الحضارة الغربية ، مرجع سابق ص (٣٢٢).

(2) Baines , Anthony : Musical Instruments Through The Ages, Op. Cit. p. (57).

(3) Hindley , Geoffrey : Musical Instruments, Melbourne Lamlyn, sun books, 1971 ,p. (57)

بعنوان (a' cordes avale'es) دلت على الاستياء من استخدام الطريقة القديمة لتسوية أوتار العود (كما عرفت فى بداية عام ١٥٥٣) ، فقد كانت هناك رغبة لإضافة أوتار غليظة لآلة العود ، حتى فى عصرها الذهبى. وقد كتب دولاند (Dowland) لإضافة وتر سابع رى (D)، وثالثة أوتار غليظة شكل (٩):(١).

شكل رقم (١٠)

ثم زادت الرغبة فى استخدام آلة العود على نطاق واسع بوصفها آلة مصاحبة تؤدى لحن الباص المتصل (Continuo) فى المجموعات الآلية ، حيث كان المطلوب باص قوى وجديد. وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر تم اختراع نوع من آلة العود أكبر حجما وأغلظ صوتا ، سمى «عود الكونسرت» أو «طيوربا» Theorbo ، له رأس ثان للملاوى «البنجق»، ورقبة عريضة مزدوجة ، كما زُوِّدَ بأوتار غليظة أكثر طولا، تُشد على بيت الملاوى «البنجق» الثانى . وكانت تلك الأوتار الغليظة تُعزف مطلقة (أى بدون عفق) . ويتراوح عدد أوتار أله الطيوربو بين (١٤ و ١٦) وترا، وتُصنع من المصران، منها ثمانية غليظة ومطلقة ، وتُسوَّى أوتارها إبتداء من نغمة فا (F) ، وتُعفق الأوتار الموضوعة على الرقبة باليد اليسرى، ويتم عزف الأوتار بأصابع اليد اليمنى (ثلاثة أو أربعة) لأداء التآلفات المطلوبة .

صورة رقم (٦)

كما ظهرت آلة أخرى سميت الطيوربا الرومانى (Roman Theorbo)، أو العود الباص (الكيتارونى Chitarrone) ، وهى آلة إيطالية الأصل ، كانت مفضلة جداً لمصاحبة الغناء ، ويبلغ طولها سبعة أقدام (٢١٥سم) ، ولها ستة أزواج من الأوتار، تبدأ تسويتها من نغمة صول (G) . وكانت المسافات التى تفصل بين دساتينها واسعة على نحو كان يعوق حركة الأصابع فى أثناء أداء الفقرات السريعة.

آلة (الكيتارونى Chitarrone)

صورة رقم (٧)

وبالرغم من أن آلة الطيوربا (Theorbo) كانت لها بعض المقطوعات المنفردة، فإنها تدين ببقائها حَيَّةً حتى نهاية القرن الثامن عشر تقريبا، إلى الأغانى التى كانت تصاحبها، وتستخدم كباص مستمر. وكذلك فقد ارتبطت آلة عود الطيوربا (Theorbo - lute) بعازفى العود الفرنسيين ، ونذكر منهم أبناء العم جوتييه (Goultier) وجاك (Jaques) ودينيس (Denis). وتُسوَّى أوتارها وفقا للطريقة الفرنسية كما أن العزف
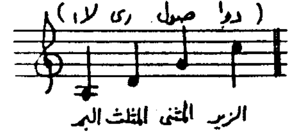
(1) Baines , Anthony : Musical Instruments Through The Ages. Op , cit , p . (161).

عليها قد تَميَّز بطابع زخرفى سيطر على أغلب معزوفات القرن السابع عشر، حتى أنها تركت تأثيرها على أسلوب الموسيقا المؤلفة لآلات لوحات المفاتيح(Keyboard) وتسوية أوتار عود الثيوربو (Thearbo - lute)(١).
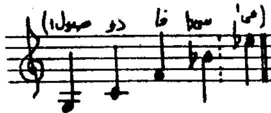
شكل رقم (١٠)

وهكذا اتضح لنا الدور الجوهرى الذى لعبته آلة العود العربية فى مراحل تطور الموسيقا الأوروبية لما يزيد عن أربعة قرون ، من أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، وحتى منتصف القرن الثامن عشر، حيث كانت آلة العود واسعة الانتشار ، وأسهمت بشكل رئيسى انتقال الموسيقا الأوروبية من الكنيسة إلى الموسيقا الدنيوية، من خلال العدد الكبير من المقطوعات التى كُتبت لها. وكانت آلة العود من المرونة حتى أنها استطاعت أن تتطور مع الموسيقا الأوروبية البوليفونية الطابع بدلا من استخدام الريشة . وتبع ذلك إضافة أوتار غليظةاستدعى وجودها تركيب بيت ثان للملاوى. وكذلك تم اختراع أحجام متعددة من آلة العود لتستطيع تغطية المساحة الصوتية لمختلف الأصوات البشرية ، حيث استعملت آلة العود فى مصاحبة الغناء والرقص ، كما قامت بدور الباص المتصل الذى كانت له أهمية كبرى فى مؤلفات ذلك الوقت . وكان عازفو العود يقومون بالعزف المنفرد ، أو بالاشتراك مع آلات أخرى. ويضاف إلى ذلك أن طريقة التدوين .. الموسيقى الخاصة بآلة العود ، وهى التدوين الجدولى قد استخدمت كذلك للتدوين لآلات لوحات المفاتيح. وقد نشرت مؤلفات آلة العود على نطاق واسع، بالإضافة إلى الجولات الكثيرة التى كان يقوم بها كبار عازفى العود الأوروبيين. وأخيرا فقد كانت آلة العود هى الآلة المفضلة لدى مؤلفى الموسيقا في العصور الوسطى وحتى نهاية عصر الباروك ونجد مؤلفين كبارا قد كتبوا أعمالا لآلة العود، ومن هؤلاء نذكر . فيفالدى، ى. س باخ، وهيادن. ولكن بمرور الوقت ومع تعقد تركيب آلة العود، وصعوبة العزف عليها ، وفى الوقت الذى كانت فيه آلة البيانو قد قطعت شوطا بعيدا نحو اكتمال صناعتها ، مع سهولة العزف عليها، ومناسبتها لأداء الموسيقا الأوروبية المتعددة التصويت. لكل هذه الأسباب انتصرت آلة البيانو على آلة العود، وحلت محلها فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر، واكتفت آلة العود بعدها بأن تظل آلة موسيقية شعبية .

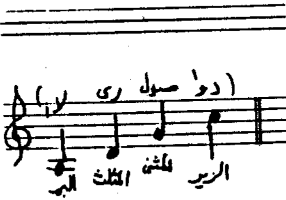
(1) Ibid . , p. (164).



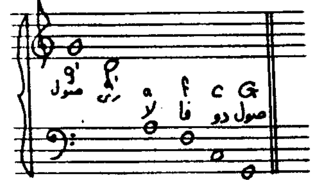
شكل رقم (٤)



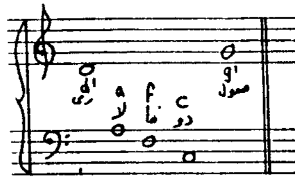
شكل رقم (٣)



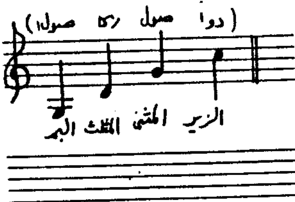
مع وجود تسويات أخرى لأوتار آلة العود
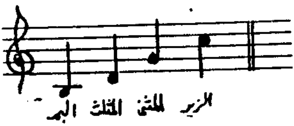


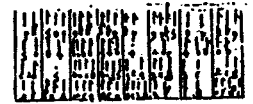
شكل رقم (٦)



شكل رقم (٥)

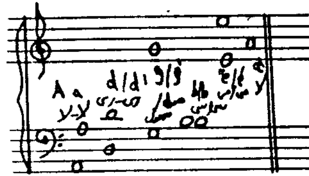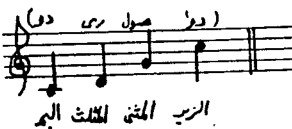






التدوين الجدولي بالأسلوب الألماني (٢٢ ـ ٥١٠)

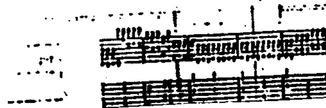
شكل رقم (٨ ب)



شكل رقم (٧)

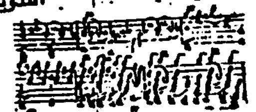


شكل رقم (١)
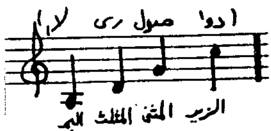


التدوين الجدولي بالأسلوب الإيطالي (٢٢ ـ ٥١٠)

شكل رقم (٨ أ)

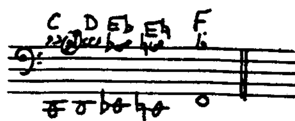


التدوين الجدولي بالأسلوب الفرنسي (٢٢ ـ ٥١٠)

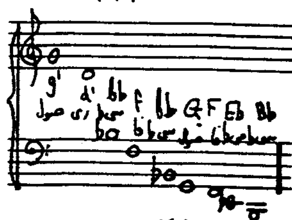
شكل رقم (٨ ج)



شكل رقم (٢)



شكل رقم (٩)



شكل رقم (١٠)



عود أوروبي من أواخر القرن الخامس عشر

صورة رقم (١)



نموذج لعود أوروبي ضخم

صورة رقم (٢)



عازف عود أوروبي

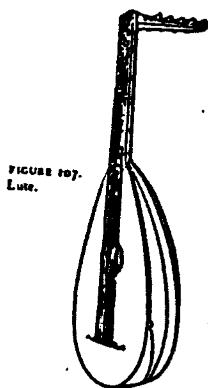
من القرن التاسع

صورة رقم (٣)



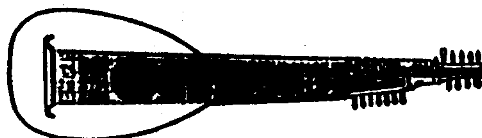
آلة عود في لوحة أوروبية (عم ١٥١٠)

صورة رقم (٤)



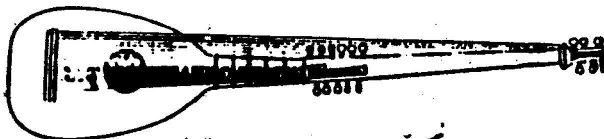
عود أوروبي من عصر النهضة

صورة رقم (٥)



آلة الطيوربا
(Theorbo)

صورة رقم (٦)



آلة الكيتارون (Chitarrone)

صورة رقم (٧)